(16)الذكر المضاعف: "سبحان الله وبحمده عدد خلقه..."

عن ابن عباس عن جويرية رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح، وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى، وهي جالسة، فقال: ما زلت على الحال التي فارقتك عليها؟ قالت: نعم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: لقد قلت بعدك أربع كلمات، ثلاث مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده، عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته رواه مسلم

شرح الحديث:

قولها: (ثمّ رجع بعد أن أضحى)

فيه حرص النبيّ صلّى الله عليه وسلّم على المكث في المسجد إلى الضّحى.

قوله: (ما زلتِ على الحال الّتي فارقتك عليها؟)

فيه بيان اجتهاد جويريّة بنت الحارث على ذكر الله تعالى، وعبادة الله، وفيه بيان أنّ من العبادات المسنونة: الجلوس لذكر الله بالأذكار المشروعة.

قوله: أربع كلمات: أي أربع جمل.

(لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ)

أي في اليوم، لأنّ "منذ " الحرفيّة لها معنيان: معنى من إذا دخلت على ماضٍ، نحو قولك: ما رأيته منذ أمس، وتأتي بمعنى في إذا دخلت على حاضر كهذا الحديث.

قوله: لوزنتهنّ:

أي: إنّ الأجر الّذي يتحصّل عليه العبد من ترديد هذه الكلمات ثلاث مرّات يعدل أجر من جلس من الفجر إلى الضّحى وهو يذكر الله تعالى، وهذا أحد وجوه كونها جامعة، فهي شاملة لعظيم الأجور زيادة على شمولها لعظيم المعاني.

سبحان الله:

أنزه الله عن كل نقص، فالله جل وعلا لا يغفل ولا ينام ولا يمرض ولا يتعب ولا يضعف ولا يعجز ولا يفتقر، ولا يحتاج إلى ولد أو زوجة ، ولا يظلم مثقال ذرة ،

ولا يغيب عنه شيء ... الخ، مما يعجز اللسان عن إحصائه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)

وبحمده

الحمد هو عكس الذم ، ومعناها أن الله تبارك وتعالى له كل صفات الكمال والجمال والجلال ، فهو سبحانه كامل في ذاته، وصفاته، وأفعاله ، و الحمد وصف المحمود بالكمال مع المحبة، والتعظيم ، لأن مجرد وصفه بالكمال بدون محبة، ولا تعظيم: لا يسمى حمداً؛ وإنما يسمى مدحاً؛ ولهذا يقع من إنسان لا يحب الممدوح؛ لكنه يريد أن ينال منه شيئاً ، كما كان بعض الشعراء يقف أمام الأمراء، ثم يأتي لهم بأوصاف عظيمة لا محبة فيهم؛ ولكن محبة في المال الذي يعطونه، أو خوفاً منهم؛ ولكن حمدنا لربنا عزّ وجلّ حمدَ محبةٍ، وتعظيمٍ

إذن فالتسبيح تنزيه الله عن النقص، والحمد لله وصف الله بالكمال.

سبحان الله وبحمده:

هي كقولنا: سبحان الله والحمد لله فهي تعني الجمع بين التسبيح والحمد، إما على وجه الحال، أو على وجه العطف، والتقدير: أسبح الله تعالى حال كوني حامدا له، أو أسبح الله تعالى وأحمده.

عَدَدَ خَلْقِهِ

ولا ينحصر عدد الْخَلْق في الْخلائق الموجودة في زمن مُعيّن، بل في جميع الأزمنة، لأن ذلك يشمل كل الْخَلْق.

ولا يشمل صِنْفًا واحدًا مِن الخلائق، بل هو عام في كل خَلْق من إنس وجنّ، وملائكة، وجميع الدوابّ صغيرها وكبيرها وكل ما خلق الله تعالى!
والمقصود: تَنزيه الله بِعدد ما خَلَق.

قوله: رضا نفسه:

وفي رواية الإمام أحمد رضاء أي أسبّحه تسبيحا هو في العظمة والجلال مساو لرضا نفسه، ولا شك أن ما يرضاه الله لنفسه لا نهاية له في العظمة والوصف والتسبيح؛ فإذا كانت أوصاف كماله ونعوت جلاله لا نهاية لها ولا غاية، بل هي أعظم من ذلك وأجل كان الثناء عليه بها كذلك.

قوله: وزِنَةَ عَرْشِهِ

العرش هو أعظم المخلوقات، وعليه استوى ربنا استواءً يليق بجلاله، قال تعالى: {فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم} [المؤمنون: 116]، قال ابن كثير رحمه الله: هو رب العرش الكريم أي: هو مالك كل شيء وخالقه؛ لأنه رب العرش العظيم الذي هو سقف المخلوقات، وجميع الخلائق من السماوات والأرضين وما فيهما وما بينهما تحت العرش مقهورين بقدرة الله تعالى، وعلمه محيط بكل شيء، وقدره نافذ في كل شيء، وهو على كل شيء وكيل.

وقال تعالى {ذو العرش المجيد} [البروج / 15] قال ابن كثير رحمه الله: ذو العرش أي: صاحب العرش العظيم العالي على جميع الخلائق، والمجيد فيه قراءتان: الرفع على أنه صفة للرب عز وجل، والجر على أنه صفة للعرش، وكلاهما معنى. صحيح تفسير ابن كثير 4 / 474

وفي الحديث: (مَا السَّمَاوَات السَّبْع في الكُرْسِيّ إلاَّ كَحَلْقَة في أرْض فَلاة، وفَضْل العَرْش على الكُرْسِيّ كَفَضْل تِلك الفَلاة على تِلك الْحَلْقَة) رواه ابن أبي شيبة

وللعرش حملة يحملونه قال تعالى: (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم) [غافر: 7]

وهم على خِلقة عظيمة عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أُذِن لي أن أحدِّث عن ملَك من ملائكة الله من حملة العرش، إنَّ ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام) رواه أبو داود وقال ابن حجر: إسناده على شرط الصحيح.

فمعنى وزنة عرشه تَنزيه للرحمن بِقَدْر أعظم المخلوقات، أي: أُسَبِّحُه وأحْمَده بِثُقْل عَرْشه.

قوله: ومِدَادَ كَلِمَاتِهِ

وهذا تنْزِيه للبارئ جلّ جلاله مثل مِداد كلماته، والمداد: الحبر الّذي يكتب به، قال تعالى: (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا) [الكهف 109]

قال ابن كثير في تفسيره فقال: يقول تعالى: قل يا محمد: لو كان ماء البحر مداداً للقلم الذي يكتب به كلمات الله وحكمه وآياته الدالة عليه، لنفد البحر قبل أن يفرغ كتابة ذلك، ولو جئنا بمثله أي بمثل البحر آخر، ثم آخر وهلم جرا بحور تمده ويكتب بها، لما نفدت كلمات الله.

وقال تعالى: وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [لقمان:27]

وقال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها، وقد أنزل الله ذلك: قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي يقول لو كانت تلك البحور مداداً لكلمات الله، والشجر كله أقلام لانكسرت الأقلام، وفني ماء البحر، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء، لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر قدره، ولا يثني عليه كما ينبغي حتى يكون هو الذي يثني نفسه، إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول، إن مثل نعيم الدنيا أولها وآخرها في نعيم الآخرة كحبة من خردل في خلال الأرض كلها.

والمقصود بكلمات الله كلامه الذي تكلم به مع رسله وكلامه الذي أنزله في كتبه وهو سبحانه يتكلم متى شاء وبما شاء

قال العلماء: ومعنى هذا أنه لو فرض البحر مداداً وبعده سبعة أبحر تمده كلها مداداً وجميع أشجار الأرض أقلاماً لفنيت البحار والأقلام وكلمات الرب لا تفنى ولا تنفد، واستعماله هنا للمبالغة، وإلاّ فإنّ كلمات الله تعالى لا تحصر بعدّ ولا غيره، لأنّه ذكر أوّلا ما يحصره العدّ الكثير من عدد الخلق، ثمّ زنة العرش، ثمّ ارتقى إلى ما هو أعظم من ذلك، وعبر عنه بهذا، كأنّه قال: ما لا يحصيه عدٌّ، كما لا تحصى كلمات الله تعالى

فسبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته

وقد تضمّن هذا الحديث تَنْزِيه الله عزَّ وَجَلّ بأكثر العدد، وهو عدد الْخَلْق، وأثقل الأوزان، وهو وزْن العَرش وأكثر الأشياء، وهو مِداد الكلمات تَنْزيهًا يَليق به سبحانه وتعالى حتى يَرْضَى.